



- مدخل -

الحمد لله وبعد، إلى كل مسلم في الشام.. وإلى كل مسلم جسده في فجاج الأرض وقلبه في الشام.. ها قد تقاطرت الجبارية موعدهم الأرض التي بارك الله فيها للعالمين.. فإن كان الصليبي قد سبقه لها بالدرونز.. فقد جاء الذهري بسوخوي ضناً أن يختصوا دونه بشؤم الجريمة.. وأول من تلقى نيران غاراتهم لم يكن جزار الأطفال بالبراميل.. بل الأطفال أنفسهم والنساء وفصائل الثوار الفاضلة..

ومازال سباع الغرب يظنون أنه لا يليق أن يشغل غيرهم منصب أستاذ حقوق الإنسان والحرية..

تحرّك هؤلاء كلهم بمجرد أن طرق المجاهدون حلقة الباب على الساحل النصيري..

صيانة مبرمل الأطفال أغلى لدى أستاذ حقوق الإنسان من ضحاياه..

لكم الله يا أهل السنة في الأرض المباركة.. غدوتم بين خوذة الجبارية وصفائر الأزارقة.. إن أفلت مجاهدكم من صاروخ هؤلاء احتضنته مفخخات أولئك..

وفي شبيه هذه النوائب يحال لبعض الحادبين أن النذارة تقتضي التهويل، فلا يزال يخطب بالهلع حتى تنكسف القلوب.. وتتبدد جمعية التوكل.. ويتيه تعلق النفوس بالله إلى التضرع للقوى الإقليمية.. وتسوّل النصرة ممن قد يكون في ميزان الله أحوج إليك منك إليه.. وهكذا كم من شقيق حجب عن أهله الباب وهو يروم نجتتهم..

بل ربما داشر عبارات بعض هؤلاء المهوّلين شيئاً من الجزء وشبيه العویل، وقد صور حال هؤلاء أبو العباس بن تيمية

تصويراً بديعاً فقال تغمده الله برحماته: (وكثير من الناس إذا رأى المنكر، أو تغير كثير من أحوال الإسلام؛ جزع وكلّ، وناح كما ينوح أهل المصائب، وهو منهى عن هذا، بل هو مأمور بالصبر والتوكّل، والثبات على دين الإسلام، وأن يؤمن بالله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأن العاقبة للتقوى) [الفتاوى: 18/295].

وعلم الاستراتيجيات والتخطيط المعاصرةاليوم تزيد التأكيد أن تهويلاً بأس ومنعة العدو في النفوس جزء من الحرب النفسية (Psywar).. وعكسه تقليل شوكة العدو ورباطة جأشه من الدعم المعنوي الذي يقوى القلوب ويعزز الروح المعنوية، وقد نبه على هذا القرآن تنبئهاً عجياً على ثلاث مراتب، في قصة يوم بدر:

فإن الله في تهيئة الأمر أرى نبيه في منامه الكفار وعددهم قليل كما قال الله {إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكُمْ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ} فقويت عزيمتهم على لقائهم.

ثم لما تقابل الصفان أرى سبحانه كل طرف الآخر بأقل مما هو عليه لايستطيعهم ببعضهم ولغيري كل فريق بالآخر كما قال الله {وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذْ التَّقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَالُ لَكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِي اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَغْفُولًا}..

ثم لما التحـمـ الجـيشـانـ أـظـهـرـ اللـهـ الـمـسـلـمـينـ فـي عـيـونـ الـكـافـرـ ضـعـفـ عـدـهـمـ فـاسـطـيرـتـ قـلـوبـ الـكـافـرـ هـلـعاـ وـتـزـاـيلـتـ أـطـرافـهـمـ ذـعـراـ فـأـمـكـنـ اللـهـ الـمـسـلـمـينـ مـنـهـمـ، كـمـا قـالـ اللـهـ {قـدـ كـانـ لـكـمـ آـيـةـ فـيـ فـتـيـنـ الـتـقـاتـاـ فـتـهـ تـقـاتـلـ فـيـ سـبـيلـ اللـهـ وـأـخـرـىـ كـافـرـةـ يـرـوـنـهـمـ مـثـلـيـمـ رـأـيـ الـعـيـنـ}..

وهكذا فإن الشيطان كان يجري الكفار على اصطدام أهل الإسلام بتهويل قوة الكفار في نفوسهم وأنه لن يغلبهم أحد كما قال الله {وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا يَحْلِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ}..

ومفهوم تشريد الخلوف، ومفهوم إعداد القوة للترهيب، في القرآن، هي أيضاً جزءاً من دلالات هذا المعنى النفسي في الحروب، وباب هذا يطول..

والمراد أن هذه اللغة التخويفية الترهيبية الإهاباتية في الحديث عن تواطؤ الأمم على الأرض المباركة، والتي يستعملها بعض الأفاضل هذه الساعة، ليست الطريق الشرعي في هذه الدهاية، فهذه اللغة النياحية مثقال التحذيل، ونحن اليوم أشد ما نكون للغة التثبيت وأنفاس المبشرات، فإنما القوة قوة القلب، والنصر صبر ساعة..

وهذا لا يعني عدم ذكر قوة العدو بحق دون زيادة، وعلى وجه الدعوة للثبات والعمل، كما قال الله ﷺ {قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ}..

والمؤمن **الفطين** يفتح وعي المسلمين لقضاياهم، ويحرك همهم ليعصبو جراحتهم، مع الاحتراس أن يدخل في حد الإرتجاف.. فقد شنع القرآن على كلمات الإرتجاف وقت الحرب، كما قال الله **{لَئِنْ لَمْ يَتَّهِ المُتَّافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجَفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لِنُغَرِّيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا}**..

وكما ذكر بعض أهل التفسير أن المرجفين في المدينة "قوم كانوا يخرون المؤمنين بما يسوؤهم من عدوهم، فيقولون عن سرايا المسلمين: إنهم قد قُتلوا أو هُزِموا، وإن العدو قد أتاكم"، مما يختلط فيه الحق بالباطل، وأصل الإرجاف الحركة والاضطراب، واستعملت هنا لأنه يحصل بمثل كلماتهم هذه اضطراب تمسك المجتمع المسلم..

فَأَنِ الْوَحْيَةُ أَذْنٌ؟

القلة حقاً تحت دخان هذه المدلهمة أقاد سُرُج القرآن حتى تكشف المخاجج والدروج وأنفذ الأسلحة وأمكن العتاد.. وبتدلى

للقلوب حبل التعلق بالله فإذا هو يلتف ما يألفون..

وسنعرض فيما يلي بعض هذه المعاني القرآنية:

قطع العائق:

من أعظم أنوار القرآن في نظير هذه الاداهية استحضار أن الله يقدر على أهل الإسلام تحذب أعداء الدين وتوافقهم عليهم ليختبرن التوكل على الله.. ففي مشهد مهيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم يحكى القرآن لنا في لحظة اكتظاظ الأعداء يقول الله: **{الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشُوهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ}**

يا لجلالة المشهد.. يقال له إن الأعداء أبرموا صفة وتحالفوا وهم حولكم الآن.. فيصعد القلب في معراج العبودية ويقول "حسبنا الله"، والحسب يأتي بمعنى الكفاية، أي أن الله كافينا.. ثم يثنى على الله ويعظمه فيقول "نعم الوكيل"، وأصل الوكالة الاعتماد، والوكيل هو الذي يعتمد عليه فيتولى الأمر..

فقوله "حسبنا الله ونعم الوكيل" حاصل معناها "الله كافينا وهو نعم من نعتمد عليه" ..

ولعلك لاحظت أن القرآن قبل أن يذكر مقولتهم هذه **{وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ}** ذكر أن حالاً إيمانية لهم سبقت ذلك فقال عنها **{فَرَادَهُمْ إِيمَانًا}**.. ظهر بذلك أن تلك المقوله التي فحّم الله شأنها **"وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ"** إنما هي ثمرة وأثر لقلب جلجل باليقين بالله في اللحظة التي تعثر فيها قلوب أكثر الخلق في شفقة الشكوك وصدوع الارتباطات.. وكم ينساب من الألسنة في مضائق المواقف كلمات إيمانية تبهت المستمعين يظنها الناس من براعة البيان وإنما هي من حرارة القلوب.. فإذا رأيت المعنيين بالشام تتفاوت كلماتهم فاعلم أن وراء ذلك قلوبًا تفاوت..

بل انظر كيف أن النبي -صلى الله عليه وسلم- وصاحبه ضمن حدود سيطرة الكفار وبينهم وقد اشتد الطلب عليه، ووصلوا لمكان وجودهم فعلاً، بل لم يكن بين كفار قريش وبين النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه إلا أن يخوض أحد الكفار عينه ليراهم دونه، كما في البخاري عن أبي بكر (كنت مع النبي -صلى الله عليه وسلم- في الغار، فرفعت رأسي فإذا أنا بأقدام القوم، فقلت: يا نبي الله، لو أن بعضهم طأطأ بصره رأنا).. فكفاهم الله إياهم وبلغ بهم الإيمان بمعية الله أعظم، كما قال الله: **{إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذَا أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزُنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرُوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}**..

فإذا تدبر المؤمن هذا الخبر من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم علم أن الرهان حقاً على ما في القلوب.. وعلم أن أكثر الخسائر والتقصي الذي أصاب المسلمين اليوم في سياستهم واقتصادهم وحروبهم وعلومهم ومعارفهم إنما منبعه نقص ما في القلوب..

وتأمل بالله عليك كيف ينبه القرآن على أن المدار على ما في القلوب في قول الله **{لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَأِ عَوْنَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعِلَمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَنْبَهُمْ فَتَحَّا قَرِيبًا}**..

وقد قال أبو العباس بن تيمية عن الأحوال التي تكون النية صادقة في طلب نصرة الدين لكن يغفل عن التوكل:

(وطائفة أخرى قد يقصدون طاعة الله ورسوله لكن لا يحققون التوكل عليه والاستعانة به، فهو لاء يثابون على حسن نيتهم وعلى طاعتهم، لكنهم مخذلون فيما يقصدونه إذ لم يتحققوا الاستعانة بالله والتوكل عليه) [الفتاوى: 10/277].

وجوهر التوكل والتعلق بالله في مثل هذه الأحوال أن تنخلع القلوب مما بيد الخلق.. وينقطع طمعها أن يكون في تدبيرهم

شيء من الأمر.. حتى يكون نظر القلب يتقلب في السماء..

وما أكثر ما يقع في القلوب الاطمئنان للنصر وقت الكثرة والإمكانيات.. وهذا غير دقيق.. بل قد تكون الذلة مفتاحاً لتعلق القلوب بالله فتكون سبباً للنصر.. وقد تكون الكثرة والإمكانيات تهش بثور العجب فيضعف التعلق بالله فتكون سبباً للهزيمة..

وتدرك هذين بالمقارنة بين الآيتين.. الأولى قول الله {وَلَقَدْ نَصَرْتُكُمُ اللَّهُ بِيَدِكُمْ وَأَنْتُمْ أَذْلَلُونَ}.. والثانية في قول الله {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتُكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً}.. فانظر كيف قاد الضعف المادي للتعلق بالله فانهمر النصر.. وكيف قادت القوة المادية للعجب فحجبت من النصر بقدرها..

ثم انظر في يوم أحد كيف كان من أصعب المواقف إذ شجّ وجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكسرت رباعيته، ومع ذلك نهاهم الله في هذا الموضع عن أمرتين في العمل والمشاعر، فنهاهم عن "الهوان" في العمل، ونهاهم عن "الحزن" في المشاعر، وكشف لهم طريق الغلبة فقال لهم سبحانه يوم أحد {وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزُنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}.. فالإيمان مفتاح الغلبة..

ثم تدرك كيف يصور القرآن انتصار أهل الإيمان ببركة التضرع والتعلق بالله كما يقول الله {وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجَنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبَرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ}

ومن المدهش حقاً عنابة القرآن بالتنبيه على هذه العلاقة بين الضراعة والنصر كما قال الله في موضع آخر {وَكَأَيْنَ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِيعُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُ الصَابِرِينَ *} وَمَا كَانَ قَوْهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ *} فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُ الْمُحْسِنِينَ}..

ومازال القرآن يعيد التصريح بوظيفة "الأسوء والضراء والمصائب والخطوب والكوارث" إذ يقدرها الله على الأمم.. وأن من أجل وظائفها المصحّ بها في القرآن استخراج الضراعة من قلوب العباد.. ومع ذلك مازالت النوايا وكمالات تتوالى وكثير من القلوب محبوسة لا تكاد تتزحزح..

قال الله سبحانه: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَّمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخْذَنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ *} فَلَوْلَا إِذْ جَاءُهُمْ بِأَسْنَانَ تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ فَسَطَ قُلُوبُهُمْ}..

وقال سبحانه في موضع آخر {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخْذَنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَرَّعُونَ}..

وقال سبحانه أيضاً {وَلَقَدْ أَخْذَنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ}..

وانظر كيف يصور القرآن نصر الله للقلة المؤمنة في مواجهة جيوش الأمم التي تتكالب عليها بحسب قوة إيمانهم وصبرهم ومجاهدتهم كما قال الله {وَإِذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعِفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفُكُمُ النَّاسُ فَأَوْكِدُمْ وَأَيْدِكُمْ بِنَصْرِهِ}..

وشدائ الأيام يختبر الله بها شدائيد الإيمان كما قال الله في حكمة مداوله الأيام {وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا} ثم قال عقبها {وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا}..

وفي موضع آخر من كتاب الله قال سبحانه {قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَيَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبَتِّلِي اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ}..

وهكذا قول الله سبحانه {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ}، ونظائرها..

فالمحن هي أدق ساعات الاختبار.. والطالب النابه إذ دخل قاعة الاختبار انكب على إحسان الجواب.. فكيف تدخل علينا ساعات الاختبار فنتقن في صياغة الإجابات الخاطئة؟!

ومن عجائب القلوب أنها إذا تعلقت بالمقاييس المادية ضمرت حدود الرؤية فيها وضاق أفقها برغم ظنها أنها أكثر حداثة ورقياً.. وإذا تعلقت بالله انفسحت لها أmdاء الرؤية.. وخذ مثلاً من أسباب النصر.. فإن المقاتل المادي لا يفكر إلا في وسائل المواجهة التقليدية المعروفة.. أما المؤمن فهو يعلم أن "جنود الله" لا يقدر عددها ونوعها وقوتها إلا هو، وما أكثر ما تكون مفاجئة للعدو، كما قال الله {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ} وقال سبحانه {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} ..

ومن أجل جنود الله الملائكة العظام كما قال الله {وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا} وقال سبحانه {وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا}..

بل ومن جنود الله العجيبة في نصر المؤمنين ما يسمونه اليوم الكوارث الطبيعية مثل الأعاصير والرياح والعواصف والزلزال والفيضانات .. كما قال الله عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّكُمْ رَعِيْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ فَارْسَلُنَا عَلَيْهِمْ رِحَماً}..

وقال عن الفيضانات والمياه في قصة قوم نوح {وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً}..

وقال عن فرعون في قصة موسى {فَإِنْتَقْمَنَا مِنْهُمْ فَأَغْرِقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ}..

وقال سبحانه عن جنس ذلك {فَكُلَا أَخْنَثَا بَنْتَهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخْنَثَهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا}

وقال سبحانه {أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا * أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَنَا فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الْرِّيحِ فَيُغَرِّقُكُمْ بِمَا كَفَرْتُمُ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا}

وهذا باب معروف إن شاء الله، ولكن المقصود التذكير بسعة وتنوع وقوى جنود الله.. وسعة أفق المجاهد المتوكل وضيق أفق المقاتل المادي..

الاستعانة بالحقائق:

كم في كتاب الله من الحقائق التي إذا تدبرها المؤمن في هذا الزمن وأمام مثل هذه الملمات أصبحت ركناً شديداً يأوي إليه.. فحقائق القرآن من أجل المثبتات..

ومن أعظم هذه المثبتات القرآنية أن لا ينحبس التفكير على جراحات المسلمين، فإن هذا قد يورث الفتور والتقاعس، بل نبه القرآن على أمر هو في غاية العجب من الإرشادات النفسية، وهو أن يستحضر المؤمن أيضاً المآزق التي يعيشها الأعداء أيضاً، فإن هذا مما يقوى القلوب، وقد جاء هذا الإرشاد النفسي في مواضع من كتاب الله، كقوله سبحانه {إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهِ}..

وقوله سبحانه {وَلَا تَهْنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ}..

والذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن هذا المعنى المذكور في هذه الآيات هو المغزى من ذكر التضعيف في قول الله {أَوَلَمَا

أَصَابَتُكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا، فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ السِّيَاقُ سِيَاقُ عَتْبٍ، إِلَّا أَنْ ذِكْرَ تضعيفِ مَا غَرَّمُهُ الْكُفَّارُ مِنْ قَبْلِ يَرَادُ بِهِ التَّعْزِيَةُ وَالتَّسْلِيَةُ وَالتَّصْبِيرُ لِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَصَحْبِهِ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْمُصِيبَةِ الْحَالِيَّةِ بِأَنَّكُمْ قَدْ أَصَبْتُمُ الْكُفَّارَ ضَعْفًا مَا أَصَابُوكُمْ.. وَهَذَا مِنْ جُنُسِ مَا سَبَقَ فِي آيَتِي ذِكْرِ الاشتراكِ فِي الْقَرْحِ وَالْأَلْمِ..

وَكُلُّ هَذَا يُؤكِّدُ عِنْدَيْنَا الْقُرْآنَ بِهَذَا الإِرْشَادِ النُّفُسِيِّ فِي اسْتِحْضَارِ الاشتراكِ فِي التَّحْدِيَاتِ.. وَعَدْمِ الْاِسْتِسْلَامِ لِدُعَائِيَّةِ الْعُدُوِّ فِي تَهْوِيلِ قُوَّتِهِ وَالْمُبَالَغَةِ فِي تَقْزِيمِ قُدْرَةِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى التَّصْدِيِّ لِهِمْ..

وَلَذِكْرِ فَإِنَّكَ تَرَى فِي كِتَابِ اللَّهِ أَنَّهُ بِرَغْمِ ذِكْرِهِ لِشَدَّةِ كِيدِ الْكُفَّارِ وَمُكْرَهِهِمْ كَفُولُهُ سَبَّحَهُ {وَقَدْ مَكْرُوْهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُوْهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُوْهُمْ لِتَرْزُولَ مِنْهُ الْجَيْلَ}..

وَقُولُهُ سَبَّحَهُ {وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بِلْ مَكْرُ الْلَّيْلِ وَالنَّهَارِ}..

وَقُولُهُ سَبَّحَهُ {وَمَكْرُوْهُمْ كُبَارًا}..

إِلَّا أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَهُ يَقُوْيِ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ بِبَيَانِ هَشَاشَةِ كُلِّ هَذِهِ الْأَحَابِيلِ وَالْمُكْرَهِ الَّذِي فُتُّلُوهُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ {فَقَاتَلُوا أُولَئِكَ الْشَّيْطَانَ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا}..

وَبَيْنَ أَنَّهُمْ بِمُكْرَهِهِمْ وَنَتْائِجِهِ الْخَائِيَّةِ .. فَقَالَ سَبَّحَهُ {قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بِنُبُيَّاهُمْ مِنَ الْقَوْاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ قَوْقِهِمْ}..

وَيَجْعَلُهَا سَبَّحَهُ سَنَةً مِنْ سَنَنِهِ {اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرُ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ}.. وَقَالَ سَبَّحَهُ {ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوْهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ}..

وَالْعَاقِلُ الَّذِي يَسْبِرُ التَّارِيخَ وَيَعْرِفُ أَخْبَارَ النَّاسِ وَأَيَّامِهِمْ يَعْلَمُ حَتَّى وَلَوْ لَمْ يَلْغُهُ الْوَحْيُ أَنَّ كِيدَ الْخُونَةِ لَا يَثْمُر.. وَلَذِكْرِ حَكْيِ اللَّهِ سَبَّحَهُ {وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِيَّنِ}..

بَلْ إِنَّ الَّذِي يَعْلَمُهُ أَهْلُ الْخَبَرَةِ بِأَيَّامِ النَّاسِ لَيْسَ أَنَّ كِيدَ الْخُونَةِ لَا يَفْلُحُ فَقْطًا، بَلْ كَثِيرًا مَا يَنْقُلُبُ عَلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ اللَّهُ {أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكْبُودُونَ}.. وَقَالَ سَبَّحَهُ {فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ}..

وَهَذِهِ التَّنبِيَّهَاتُ الْمُتَكَرِّرَةُ عَنْ سُقُوطِ كِيدِ الْكُفَّارِ مَقْصُودُهُ بِهَا تَصْفِيَّةُ شَعُورِ الْمُؤْمِنِ قَطْعًا كَمَا قَالَ اللَّهُ {وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ} وَقُولُهُ سَبَّحَهُ {وَلَا تَحْزُنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ}.. لِأَنَّهُ كُلُّمَا صَفَى بَاطِنَ السَّلَاحِ كَانَ أَنْفَذَ لِطَلَقَاتِهِ..

وَالْأَهْمُ فِي هَذَا كُلُّهُ أَنَّ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ طَرِيقَ بَطْلَانِ الْكِيدِ وَالْمُكْرَهِ الْكُفَّارِ الْكَبَارِ، وَهُوَ مَرَّةٌ أُخْرَى: التَّعْلُقُ بِاللَّهِ وَتَقْوَاهُ، كَمَا قَالَ سَبَّحَهُ {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا}..

وَمِنْ حَقَّاقِ الْقُرْآنِ الَّتِي تَشَدُّدُ أَفْئَدَهُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْتَضْعِفِينَ أَنْ فَتَحَ أَبْوَابَ الْإِمْكَانِيَّاتِ عَلَى عَتَاهُ الْكُفَّارُ هِيَ الْلَّهُوَاتُ الَّتِي تَسْبِقُ الْأَخْذَ إِلَيْهِ الْمُبَاغِتَ كَمَا قَالَ اللَّهُ {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِرُوا بِهِ فَتَحَنَّا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرَحُوا بِمَا أُوتُوا أَخْذَنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِنَّا هُمُ الْمُبْلِسُونَ}..

وَقَالَ سَبَّحَهُ {ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْنَا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ أَبَاءَنَا الْخَرَاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخْذَنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}..

ومن أعظم المثبتات القرآنية أن يستحضر المؤمن أن الله جل وعلا ينصر أولياءه بحسب ولایتهم بنوع رعب يلقيه فيه قلوب أعدائهم، كما قال الله {إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتَبَيَّنُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلُقُّكُمْ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّغْبَ}..

ولكن ما سبب هذا الرعب؟

الحقيقة أنه كما أن إفراد الله بالتعلق والتوكيل عليه وتفويض الأمور إليه سبب لقوة القلب.. فإن الشرك الذي مادته وينبع عنه التعلق بغير الله هو سبب الرعب الذي يقع في قلوب الكفار، كما قال الله {سَلَّقَكُمْ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّغْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ}..

ولذلك قال أبو العباس ابن تيمية عن مركزية قوة القلب (الشجاعة ليست هي قوة البدن، وقد يكون الرجل قوي البدن ضعيف القلب، وإنما هي قوة القلب وثباته) [الفتاوى: 28/158].

ولذلك كثيراً ما يتسائل المتابعون: ما سبب شيوخ الضعف المعنوی في مقاتلي الكفار؟ والحقيقة أن من أعظم ذلك هو هذا الكفر الذي في قلوبهم، فصار تعلقهم بغير الله سبحانه، وكل من تعلق بغير الله لحقه من الخور والوهن بقدر ذلك..

وقد نبه القرآن على كثرة فرار الكفار في قتالهم في مواضع متعددة، منها قول الله {لَنْ يَضْرُوكُمْ إِلَّا أَذْدَى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلُوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ}..

وقال سبحانه {وَلَوْ فَاتَّكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَئِنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيَا وَلَا نَصِيرًا}..

وقال سبحانه {لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوْتُلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوْلَئِنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ}..

ومن أسباب هذا أن القلب إذا خلا من التعلق بالله تعلق بالدنيا، كما قال الله {وَلَتَجَدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسَ عَلَى حَيَاةٍ}..

فكما شمخ المؤمن في أفلاك التعلق بالله زادت طمأنينته وسكننته وقوته قلبه.. وكلما شرك الكفار وشاطرهم شيئاً من التعلق بغير الله اعتبراه من الرعب على قدر ما شاركهم.. وهذا فرع عن قاعدة "تبغض الجزاء بقدر العمل"، وهي قاعدة نافعة عظيمة في تدبر الأعمال والجزاءات في القرآن، في باب الثواب وباب العقاب كليهما، وجواهر هذا الأصل هو "التحذير من مشابهة الفعل بالفعل، لا إلحاق الفاعل بالفاعل"، وسبق نشر شيء عنها، وسألنا لاحقاً المزيد بإذن الله من تطبيقات النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه فيها..

ومن أعظم المثبتات أن يومن المؤمن أن هذه التحالفات الفاسدة، وهذه الخيانات التي يتذلل فيها الضعفاء للمستمكين .. سيأتي يوم قريب يتنصل فيها بعضهم من بعض.. كما قال الله: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ *} وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَّبَرَّا مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ}..

ومن معاني القرآن في مثل هذه الساعات أن يستحضر المؤمن أن الله جل وعلا حين ذكر في كتابه آية "حياة الشهداء" {وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ} أعقبها فوراً بذكر صنوف الابتلاء {وَلَنَبْلُونَكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخُوفِ وَالْجُوعِ وَنَقصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالنَّمَرَاتِ} فيرتفع ثواب الشهادة بقدر مصايرة المجاهد على لأواء طريقها..

إنه أوان البأس الذي رفع الله شأن الصبر فيه حين قال {وَالصَّابِرِينَ فِي الْبُلَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} وحين البأس هو أوان شدة القتال في سبيل الله كما قال أهل التفسير.. وقارن مدح الله المؤمنين بالصبر أوان البأس بذمه فرار المنافقين منه في قوله {وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا}..

ومن أعظم المثبتات القرآنية حال ملاحم أهل الإسلام أن يستحضر المؤمن أن إخوانه الذين سبقوه على هذا طريق سنام الإسلام ورأوا - بإذن الله - من كرامة الله لهم ما صاروا به يستبشرون بمن مازال على الطريق.. كما قال الله {وَيَسْتَشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}..

ومن أعظم المثبتات القرآنية أن يوقن المؤمن أن ما يعتري قلبه بين فينة وأخرى من التخويف والترهيب من تحزب أمم الكفر إنما هو من الشيطان الذي يخوّف المسلمين بأوليائه الكفار كما قال الله {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أُولَيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}، أي "يخوّفكم أولياء الكفار" كما قال أهل التفسير..

ومن أعظم المثبتات القرآنية أن يتبرأ المؤمن في كتاب الله "أغراض الإملاء للكفار" كقول الله سبحانه {وَلَا يَحْسَبَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنَّفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ}..

وقوله سبحانه {وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَيِّنٌ}..

وقوله سبحانه {أَيَّ حَسِيبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَنَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ}..

وهذه مجرد أمثال ونماج، وليس المقصود طبعاً الاستقصاء والتتبع، وهي حقائق قرآنية إذا تدبرها المؤمن وعقلها وعاش معناها كانت له من أعظم العون في مواجهة مثل هذه الدواهي العظام التي تطوق أهل الإسلام.. فكم في تدبر القرآن من ظهير وسند..

تدعيم المراجعات:

من أجل أنوار القرآن في مثل هذه الحنادس الدعوة إلى مراجعة العلاقة بالله.. وأن الانكسار في الجهاد فرع عن شرخ في التزكية.. كما بين كتاب الله هذا في قوله {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا}..

وقال سبحانه {أَوَلَمَا أَصَابَتُكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا فَلَمْ يَأْتِمْ أَنَّهُمْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ}..

فيما لله العجب ما أشد شئم المعصية.. حتى ضعفت طاقة المجاهد ومال للفرار ووقع عليه الأذى يسبب ذنب!.. فإذا كان هذا على المجاهد مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فكيف بنا نحن اليوم؟!

ومن كمال الدلالة القرآنية أن بيّن القرآن المعنى وضده، وهو أحد الأوجه في تفسير وصف الله لكتابه بأنه "مثاني"، ومن أفراد هذا المعنى هاهنا: أن الله كما بيّن أن المعاصي سبب للهزيمة فقد بيّن أن الطاعات سبب للثبات كما قال الله {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ ثَبِيتًا}.

وأنتم يا أهل السنة في الشام وسط بين طرفين من المنتسبين للإسلام .. حيث ذكر الله في كتابه ثلاثة أطراف في قوله {وَقَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا}

فقد حُرم فئام من المسلمين من شرف الجهاد معكم.. وشارکكم طائفة من الغلاة قتال الكفار لكنهم "اعتدوا" .. وبقيتم أنتم بإذن الله من جمع أطراف الشرف في هذه الآية {وَقَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا}..

وتقوى الله كما تكون في قتال المعتدين فإنها تكون في ترك العدوان في القتال.. فسنام الإسلام ليس للمخذلين عن الجهاد ولا للمعتدين في الجهاد..

والمراد أن شرف الجهاد الشرعي وسط بين من دعى لترك قتال الكفار وال المسلمين سوياً وهم المخذلون، وبين من دعى لقتال الكفار وال المسلمين سوياً كالغلاة، وهذا الوسط يتبيّن بمعرفة مثارات الذنوب في القوة الشهوية والغضبية المركوزة في النفس البشرية وسيأتي تفصيله في فرصة قادمة بإذن الله..

ومن أعظم أنوار القرآن في مثل هذه المدحمة تدبر ربط القرآن النصر بقدر الاجتماع.. وهذا موضع تُسْكِب عنده عبرات المحبين للجهاد الشامي.. فقد تقرّحت الآفاق من مشهد الانفصال.. والله يقول {وَلَا تَنَازَّعُوا فَتَفْشِلُوا وَتَنْهَبَ رِحْكُمْ} فعلى قدر التنازع والافتراق يكون ذهاب الريح، وعلى قدر اجتماع الكلمة يكون النصر..

بل انظر كيف أن "التنازع في الأمر" في موقف واحد حال الملحة فتح على المسلمين من الانكسار بقدره، فكيف بالافتراق والتنازع والتشرد على طوائف وأحزاب؟! يقول الله: {وَلَقَدْ صَدَقُكُمُ اللَّهُ وَعَدُهُ إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشَلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفْتُمْ عَنْهُمْ لِيَنْتَلِكُمْ وَلَقَدْ عَفَ عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ}..

وتدرك هذا الذي وقع على سادات الأولياء الذين جمعوا شرف الصحابة وشرف الجهاد في موضع واحد كله بشؤم التنازع العارض من أعظم ما يقتل من القلب جذور الحزبية القتالية..

وهذه الجراحات التي تقع بين فسائل القتال المتحزبة هي من جنس العذاب الذي يسلطه الله سبحانه كما قال جل وعلا {قُلْ هُوَ الْفَارِدُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِّنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسُكُمْ شَيْئًا وَيُنِيقَ بَعْضَكُمْ بِأَسْبَاعِ بَعْضٍ}..

فكل من سعى في رأب الصدع ولم شمل أهل السنة فقد سعى في رفع العذاب عنهم.. والله سبحانه يكون في عون العبد إذا كان العبد في عون واحد من إخوانه وفي لفظ كان الله في حاجته، ويفرج عنه كربة من كرب يوم القيمة إذا فرج عن أخيه كربة من كرب الدنيا، وكلاهما في الصحيحين، فكيف بالله عليك من سعى في رفع العذاب عن طوائف الأمة، فكيف سيكون ثوابه؟ ولذلك عظم الله في كتابه شأن الإصلاح بين الناس في موضع متعدد..

ومن أعجب دروس القرآن في مثل هذه اللحظات، بل هي من معجزاته ودلائل نبوة من أتى به، أن أصحاب التفكير الذاتي والمصالح الشخصية الذين لا يفهمون إلا أنفسهم أو وطنهم الجغرافي المسيّس، ولا يفهمون أهل الإسلام؛ هذه الشرحة هم مادة الواقع في "ظن الجاهليّة"، الذين لا يثقون بوعود الله، كما قال الله {وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهْمَمْتُهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ}..

وما أحسن عبارة ابن كثير عن أصحاب هذا التفكير إذ قال في تفسيره (اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة، وأن الإسلام قد باد وأهله، هذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة، تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة).. وهذا الظن الذي سماه القرآن "ظن الجاهليّة" ما أكثر ما رأينا في أصحاب الدعوات "الوطنية الجاهليّة" .. وهكذا فجاهليّة الرأي تورث جاهليّة المشاعر..

والحقيقة أن الظنون المرتابة كثيراً ما تنبّح لحظة احتشاد الأحلاف وإحاطة كمامتها بأهل الإسلام كما وصف الله يوم الأحزاب بقوله: {إِذْ جَاءُوكُمْ مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَيْمَانُ وَلَفَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا}..

وهي من أحكام لحظات الاختبار لأهل الإيمان كما في الآية التي عقّبها {هُنَالِكَ ابْتُلَى الْمُؤْمِنُونَ وَرُلُزِلُوا زِلْزاً شَدِيداً}..

وهي أيضاً أكثر لحظات الإخفاق للقلوب التي ضعف فيها اليقين كما في الآية الثانية بعدها {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي

فُلُوْبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا..

ثم لما حكى الله المقوله النفاقية التي نجمت في هذه المحنة "ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا" جاء بعدها ببعض آيات حكاية المقالة الصحابية الإيمانية التي تلهف النفوس الشريفة أن لو كانت شاركت بمثل هذا الموقف..

تذكر هذه المقوله النفاقية السابقة يوم اجتماع الأحزاب {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا}..

ثم أقرأ قول الله بعدها ببعض آيات {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا}..

لا إله إلا الله.. هذا والله الشرف.. هذه والله المعالي.. يارب نسألوك من فضلوك أن تعمر قلوبنا بكمال التوكل عليك واليقين بك وبوعدك..

ومن المؤكد أن القارئ لم يفته ملاحظة الاشتراك بين وصف القرآن لحال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم بدر، ووصف القرآن لсадات الأولياء من الصحابة يوم الأحزاب، فقد قال سبحانه عن احتشاد الأعداء يوم بدر {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشُوهُمْ فَزَادُهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسِبْنَا اللَّهُ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ} فوصفه بأن الخطاب زاده إيمانا..

وبنفس هذا الوصف قال سبحانه عن احتشاد الأعداء يوم الأحزاب {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادُهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا} فوصفهم أيضاً بأن الحديث ما زادهم إلا إيمانا..

وربما لم يفت القارئ أيضاً ملاحظة أن "ظن الجاهليه" ذكر الله ظهوره في الورقات الثلاث: فقال عن غزوة أحد {يَظْئُونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَ الْجَاهِلِيَّةِ} وقال عن غزوة الخندق {وَتَظْئُونَ بِاللَّهِ الظُّلُونَ} وقال عن منصرف رسول الله إلى عام الحديبية {وَظَنَنْتُمْ ظَنَ السَّوْءِ}..

فهذه من الأمراض المتكررة الظهور في اللحظات الحالكة..

ومن أشد الأمراض التي تفتك بالковادر المنتسبة للجهاد أن يكون ولايتها على قدر حظ نفسها، كما قال الله عن جنس ذلك {فَإِنْ أَعْطُوا مِنْهَا رَضْوًا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ}..

ولكن النفوس إذا مرضت أظهرت موالاتها في قالب جمع الكلمة، وأظهرت معاداتها في قالب الصدع بالحق.. وللنفوس من الخبايا والأغوار ما لا يقدرها إلا الله..

ومن أعظم المراجعات التي تستدعيها الأحداث إعادة بعث الهمة باستكمال تحكيم الشريعة في كل شؤون الحياة.. وكثير من غزت قلبه النظارات المادية في الاجتماع البشري يظن أن "الشريعة" غرضها بعد الأخلاقي الفردي فقط، وهو فكر يروج بين من يمكن تسميته "متصوفة الحداثة"، وهم خليط من العلمانيين الذين يسمون أنفسهم المتصالحين مع الدين والمتقاربين معهم من روحياني الفلسفة المعاصرة، فيحصرون الإسلام بالتفسيير الأخلاقي، بالتعريف الضيق للأخلاق، وهي فكرة قديمة قد تعود لتصبح موجة اليوم للتجمّل أمام مدارس النقد الأخلاقي الغربي للحداثة، ولا يدرك هؤلاء – أو يدركون لكن لا يعيشون المعنى يقيناًـ أن إقامة الشرع زيادة على كونها لتحقيق العبودية لله فإن لها "آثاراً منفصلة" في الدنيا بهطول الخيرات ودفع الجوانح، كما قال الله {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرْبَى آمَنُوا وَاتَّقُوا أَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}..

وقال سبحانه {وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فُوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ}..

وقد قال أبو العباس ابن تيمية: (فقد علم بالاضطرار من النقل المتواتر، والتجارب المعروفة، أن الأعمال الصالحة توجب أموراً منفصلة من الخيرات في الدنيا، وأن الأعمال الفاسدة توجب نقىض ذلك، وأن الله تعالى عذب أهل الشرك والفواحش والظلم، كقوم عاد وثمود ولوط وأهل مدين وفرعون، بالعذاب المنفصل والمشاهد، الخارج عن نفوسهم، وأكرم أهل العدل والصلاح بالكرامات الموجودة المشاهدة، وهذا أمر تقر به جميع الأمم، فكيف يقال إن العبادات والطاعات ليس مقصودها إلا ما يوجد في النفس من صلاح الخلق؟) [الصفدية: 2/238].

والبوج الأخير في هذه المقالة هو تأمل درس الحضارة الغربية مجدداً.. فتواطئ الأحزاب على الشام وإلقاءهم النيران على أهله مجرد تأكيد جديد ليوقظ الذي مازال يخفق قلبه بالهياج بالإنسان الغربي وتعشق القيم في الحضارة الغربية.. وليقرأ قول الله {هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ}..

اللهم استعملنا في تقوية قلوب إخواننا المسلمين..

والله أعلم،

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآلـه وصـحبـه،

صيد الفوائد

المصادر: